تفكيك أسطورة"سقوط غرناطة : كيف صاغ فرناندو الكاثوليكي نهاية الأندلس بأساطير المنتصر،وبداية النازية،والفاشية؟"

أولا: التمهيد :

سنقوم بتفكيك هذه السردية الأسطورية، من خلال تحليل المصادر التاريخية العربية والإسبانية، ومقارنة الروايات المتداولة بالوثائق الأصلية، للكشف عن التلاعب السياسي والديني الذي رافق سقوط غرناطة، وتبيان كيف تحولت الأسطورة إلى أداة لتبرير التطهير العرقي باسم الدين.

لم يكن هتلر،أو موسوليني،بصفتهما ممثلين لأبشع نظام حكم دموي ،وقمعي ،واستبدادي عرفه التاريخ،ألا وهما:النازية والفاشية،ولا أول نظام حكم دموي،بدأ بالمحارق البشرية،والإبادة الجماعية،والجرائم الجنائية ضد الإنسانية؛بل سبقهما نظام الحكم الكاثوليكي المنتصر في الأندلس،ممثلا في فرناندو وإزبيلا ، في ارتكاب تلك الفظائع،والجرائم الجنائية،الأكثر دموية،وبشاعة في التاريخ ضد الإنسانية وحقوقها،والأكثر قسوة وحقدا، ضد الشعب الأندلسي المسلم،الذي ورثوه بعد انتصارهم على آخر حاكم مسلم في غرناطة..!

في صبيحة الثاني من يناير عام ١٤٩٢، طويت صفحة كبرى من تاريخ الأندلس بسقوط آخر ممالكها الإسلامية: غرناطة. تولى تسليم مفاتيح غرناطة آخر سلاطين بني الأحمر، محمد الثاني عشر (أبي عبد الله-الملقب إسبانيا بـ- الصغير)، للملكين الكاثوليكيين فرناندو الثاني ملك أراغون وإيزابيلا الأولى ملكة قشتالة. ولم يُروَ هذا الحدث في المصادر الإسبانية الرسمية بوصفه مجرد انتقال سياسي، بل صيغت حوله سردية أسطورية ذات طابع ديني وقومي، هدفت إلى إذلال الطرف المهزوم وتبرير الانتهاكات اللاحقة بحق المسلمين،وكان بداية لصراع سردي هائل تسلل إلى كل ثنايا الذاكرة الجمعية الإسبانية والعربية والإسلامية مع الأسف!

وقام المنتصر بصياغة سرديته ضمن مشروع "وحدة إسبانيا" والتطهير الديني، بينما بقي المغلوب بين تهمة الجبن والخيانة تارة، وتراجيديا الضياع الخالد تارة أخرى.

وتشكلت حول شخصية أبي عبد الله غيرالصغير أساطير جمّة، تصوره ،جبانًا خائنًا باكيا ضعيف الإرادة، وعززت هذه السردية صورة الملك فرناندو الثاني كبطل قومي كاثوليكي مخلص، ومحق في "الاستعادة" ،وتطهير الأندلس من الإسلام. وامتدت هذه السرديات إلى الفن التشكيلي والآداب والسينما، والدراسات الأكاديمية،

وأسست دلالاتها لإجراءات قمعية عنيفة ،بدأت بنقض معاهدة غرناطة بفتوى بابوية ولاحقت المسلمين،والموريسكيين الأندلسيين بالتنصيرالقسري والتطهير العرقي. (١)

وقصة سقوط غرناطة-مع الأسف-وقعت بين سرديتين ،متناقضتين ،يحتاجهما المغلوب والمتغلِّب دائما؛ليبرر المغلوب،لماذا غُلِب؟والمتغلب لماذا غَلَب؟فيبالغ كل منهما في تأليف القصص ،والسرديات، والأساطير،والخرافات الخيالية، التي أدت إلى سقوط المغلوب وهزيمته،وانتصار المنتصر،وتفخيم موقفه وشجاعته،فملك الإفرنج،فرناندو محتاج لتأليف الروايات وفبركة قصص شجاعته وإقدامه،التي كانت وراء هزيمته للمسلمين،وطردهم من الأندلس؛ليقدمها لزوجته الملكة:إزبيلا،ليقنعها بجدارته بها،وأيضا؛للتهوين من أمر الخصم، وتشويه سمعته،واحتقاره،والتقليل من شأنه،وتعييره،ومنه تسميتهم الملك أبي عبدالله بـ(الصغير)!واختراعهم لقصة بكائه،ورد أمه عليه،وادعاء أنها شاعرة !...وكلها قصص اخترعوها،وزيفوها ،وفبركوها،ضد الملك أبي عبدالله محمد الثاني عشر،ولا أساس لها من الصحة البتة.

وبعض المسلمين أيضا يحتاجون؛ لتصديق بعض تلك الروايات التي وردت في السردية الإسبانية الكاثوليكية،لتسلية أنفسهم،وتبرير أسباب هزيمتهم!ومثال ذلك الأوضح: قصة ضعف الملك أبي عبدالله محمد الثاني عشر،وادعاء جبنه ،وزعم عدم دفاعه عن آخر ثغر من ثغور الأندلس،وهو غرناطة،وتسميته بـ(الصغير)!

فهذه القصة الخرافية،والدرامية بجميع سيناريوهاتها،ومقدمتها،وأحداثها،

وشخصياتها،وأسلوبها،وحبكتها وبطولاتها، وخاتمتها ،ونتيجتها، وتفاصيلها،لا تثبت في أي مرجع معتمد لدى المسلمين،وإنما تلقفها بعض الكتاب العرب في بدايات القرن التاسع عشر الميلادي،تقليدا أعمى،لكتابات بعض المستشرقين ،ومن روايات خيالية لكاتب أمريكي،وكاتب يهودي،وغيرهما من الإسبان ومن جنسيات غربية كاثوليكية حاقدة..! ففي عام ١٨٣٢م، أورد الكاتب الأمريكي واشنطن إيرفينج، ذكر شخصية أبي عبد الله محمد الثاني عشر، أكثر من مرة في حكايات الحمراء، ولاسيما في فصل: تذكارات أبو عبد الله. وفي عام ١٨٩٢م،كان الملك أبو عبد الله محمد الثاني عشر ،هو الموضوع الرئيس لأوبرا من ثلاثة فصول ألفها الملحن اليهودي الألماني البولندي موريتز موشكوفسكي، بعنوان "أبو عبد الله".

---

(١) انظر: «الدين والدم»: قصة التطهير العرقي لشعب الأندلس – أواصر www.awaser.net

،و حكاية طرد الموريسكيين من إسبانيا - اخباركم akhbaarcom.com ،وسياسة التهجير الإسبانية لمسلمي الأندلس بعد سقوط غرناطة عام ١٤٩٢م- repository.univ-msila.dz،و استمع إلى:بودكاست مغارب،قناة:أثير، مع المؤرخة الإسبانية الموريسكية/أديبة عبدالصمد روميرو سانشيز.

فالملك أبو عبدالله محمد الثاني عشر بن علي بن سعد النصري أو الأحمر الساعدي الأنصاري الخزرجي الأزدي القحطاني،من ذرية سيدنا قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري -رضي الله عنه-،قاوم نصارى الإفرنج الإسبان (فرناندو وإزبيلا)مقاومة باسلة،وقاتلهم قتال الأبطال،وصمد لهم صمود الشجعان،أكثر من عشر سنوات،وحوصر من قبل الكاثوليك الإفرنج الحاقدين مدة تسعة أشهر،حتى دب الفقر والمجاعة في صفوف شعبه من شدة ذلك الحصار،واستنجد ،واستغاث بجميع حكام المسلمين في حينه في المشرق والمغرب،ولم يجد منهم النصرة والنجدة والمدد؛ثم اجتهد بعد استعراض المصالح والمفاسد،ورأى أن مصلحة المسلمين في تسليم غرناطة،حفظا لضروراتهم الخمس،ووقّع معاهدة محكمة وواضحة ،تحقن دماء المسلمين ،وتحفظ دينهم،وأعراضهم وأموالهم...واحتاج الإفرنج الإسبان الكاثوليك الحاقدين؛لنقضها،استصدارهم لفتوى من البابا الكبير في الفاتيكان،وهو الطلب الذي لم تتأخر إجابته ،وإجازته من البابا! والأحداث التاريخية المأوساوية التي أعقبت نقضهم لتلك المعاهدة،والتي كان المسلمون الأندلسيون ضحاياها،ستبقى وصمة عار إلى أبد الآبدين في جبين أتباع الدين النصراني الكاثوليك،وستلاحقهم لعنتها إلى يوم الدين،وستبقى علامة فارقة لتطبيق حقوق الإنسان والعدالة والمساواة والتعايش بين جميع أتباع الديانات السماوية،والحرية الدينية؛عندما تكون الغلبة والانتصار للمسلمين على غيرهم،وعلامة فارقة للحروب والقتل والتشريد والتهجيروالانتقام والثارات،والعنصرية،والكراهية،وانتهاك حقوق الإنسان، والأحقاد،والقمع والقتل والإبادة الجماعية،والتطهير العرقي،والإكراه على التنصيرومحاكم التفتيش،وألوان التعذيب والتنكيل والتمثيل والذبح والسلخ والحرق والشوي لبني الإنسان،وشتى الفظائع والجرائم البشعة التي لم تسلم منها حتى الكتب والمخطوطات...وذلك عندما تكون الغلبة والانتصار لغير المسلمين.

ولنا خير شاهد في الحروب الصليبية،وسقوط الأندلس بيد النصارى الكاثوليك الحاقدين، والحروب العالمية: الأولى،والثانية،والثالثة.

ولم يذكر في التاريخ القريب والبعيد عن دولة من الدول، أبادت شعبها،ونكلت بهم شر تنكيل، سوى دولة الإفرنج الإسبان الكاثوليك الحاقدين،ممثلة في فرناندو وإزبيلا! قبل هتلر والنازية،وقبل موسوليني والفاشية،وقبل نظام الفصل العنصري"الأبارتايد".(٢)

---

(٢)انظر: المراجع التالية:

- المقري، أحمد بن محمد .(1631) *نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب* .القاهرة: دار الكتب.

ثانيا:تفكيك أساطير السردية الكاثولكية،ضد الملك أبي عبدالله،وتفنيدها:المؤسسة على أكذوبة: البكاء، والجبن،وعائشة الشاعرة،والصغير!

لقد تغلغلت أسطورة "بكاء الملك محمد الثاني عشر وزعم توبيخ أمه عائشة له" في المخيلة الإسبانية الكاثوليكية،والعربية معا،بينما تشير التحقيقات التاريخية إلى أن أول مصدر معروف لهذه الرواية هو: أنطونيو دي غيفارا، الأسقف والمستشار الملكي، الذي سجلها في رسالة عام ١٥٢٦م،أي بعد أكثر من ثلاثين سنة على الحدث الفعلي. (٣)

الملامح والمؤشرات المهمة:

١- الأسطورة بين الحقيقة التاريخية ،والتشويه السياسي الكاثوليكي

٢-صنع السردية الكاثوليكية الإسبانية في ظل فرناندو الثاني،وإزبيلا.

٣-تفنيد الأساطير التي روجها الإسبان الكاثوليك عن الملك أبي عبد الله محمد الثاني عشر.

٤-إبراز مقاومته البطولية وصموده أمام فرناندو وإيزابيلا.

٥-توثيق خيانة المعاهدة ونقضها واستصدار فتوى بابوية لتبرير التطهير العرقي.

- ابن الخطيب، لسان الدين .(1374) .*الإحاطة في أخبار غرناطة* .تحقيق: محمد عبد الله عنان. القاهرة: مكتبة الخانجي.
- Harvey, L. P. (2005). *Muslims in Spain, 1500 to 1614*. University of Chicago Press.
- O'Callaghan, J. F. (2003). *A History of Medieval Spain*. Cornell University Press.
- Kamen, H. (1997). *The Spanish Inquisition: A Historical Revision*. London: Weidenfeld & Nicolson.
- García-Arenal, M. (2016). *The Expulsion of the Moriscos from Spain: A Mediterranean Diaspora*. Brill.
- Vincent, B. (1992). *La última frontera de Al-Andalus: los moriscos del Reino de Granada*. Madrid: Alianza Editorial.
- Fernández-Morera, D. (2016). *The Myth of the Andalusian Paradise: Muslims, Christians, and Jews under Islamic Rule in Medieval Spain*. Intercollegiate Studies Institute
- بودكاست مغارب قناة أثير مع المؤرخة الإسبانية الموريسكية/أديبة عبدالصمد روميرو سانشيز.

(٣)انظر: الگارديني - مجلة ثقافية عامة - الملك المكلوم: ج٤ زفرة العربي الأخيرة algardenia.com ،ومدونة صلة الرحم بالأندلس: أساطير حول أبي عبد الله الصغير. andalusway.blogspot.com

٦-مقارنة الجرائم التي ارتكبت بحق المسلمين في الأندلس بجرائم الإبادة في التاريخ الأوروبي، بما في ذلك الفاشية والنازية،ونظام الأبارتايد.

٧-غياب الرواية في المصادر العربية.

٨-تحليل وظيفي للأسطورة في خدمة السردية الكاثوليكية.

٩-إعادة الاعتبار للملك أبي عبد الله كمفاوض قوي،وماهر،وليس كشخص ضعيف ومنهار.

من أكثر الروايات تداولا في السردية الإسبانية الكاثوليكية حول سقوط غرناطة، تلك التي تزعم أن الملك محمد الثاني عشر، المعروف بأبي عبد الله ، بكى عند تسليم مفاتيح غرناطة، فردّت عليه والدته ببيت شعر ساخر،وادعاء أنها شاعرة! وهذه القصة،رغم شهرتها، تفتقر إلى أي سند تاريخي موثوق، سواء في المصادر العربية أو حتى في الوثائق الإسبانية المعاصرة للحدث.

مما يؤكد حقيقة وضعها ،واختلاقها،من قبل المنتصر،ضمن سرديته المزورة للتاريخ،وحقائقه،لإثبات قوته،وتفوقه،وتشويه سمعة الخصم ،وإظهاره بكل مظاهر الضعف والهزيمة والجبن..!ومن الأدلة المفندة لهذه الأسطورة وسردياتها ،وعدم ثبوتها:

١-غياب كامل لهذه القصة في المصادرالموثوقة،والمعتمدة علميا لدى المسلمين وغيرهم،ولم ترد في الروايات العربية-عدا بعض الأفلام والمسرحيات المصرية الحديثة، التابعة للرواية الكاثوليكية حذو القذة بالقذة دون أي تمحيص!- ،ولم ترد في المصادر الوثائقية المعاصرة للحدث؛ فالمقري وابن الخطيب وغيرهم، لم يذكرا القصة بزخمها النهائي،ولا وردت إشارة إلى بكاء أبي عبد الله،أو للعبارة المنسوبة إلى والدته،ولا توجد أي إشارة لهذه الرواية في كتب المؤرخين المسلمين الذين عاصروا الحدث، مثل لسان الدين بن الخطيب أو المقري. (٤).

٢-وجود تباين واختلاف حتى في الروايات القشتالية ،حول الموقع والزمن والفاعل الحقيقي للعبارة :هل قيلت في الطريق إلى المشرق أم بقصبة الحمراء أم في مرتفعات البدول؟ وهل كانت الأم "عائشة" أم "فاطمة"؟ تعارض هذه التفاصيل،وتباينها،يكفي لنفيها ،ورفض مصداقيتها التاريخية. (٥)

---

(٤) انظر: الگاردينيا - مجلة ثقافية عامة - الملك المكلوم: ج٤ زفرة العربي الأخيرة algardenia.com ومنفذ زفرة المسلم الأخيرة - ويكيبيديا ar.wikipedia.org ،ومدونة صلة الرحم بالأندلس: أساطير حول أبي عبد الله الصغير. andalusway.blogspot.com

(٥) انظر: الگاردينيا - مجلة ثقافية عامة - الملك المكلوم: ج٤ زفرة العربي الأخيرة algardenia.com

٣-لم يتأكد اسم والدة أبي عبد الله ،وأنها كانت تُدعى "عائشة"،لوجود رواية أخرى تزعم أن اسمها:فاطمة، ولا أنها كانت شاعرة،بل إن هذا الاسم شاع لاحقا في الأدبيات الإسبانية لتضفي طابعا شرقيا على القصة،مع أنها هذا الغرض يتأكد أيضا باسم فاطمة!

٤-أول ظهور موثق لهذه الرواية كان في كتابات إسبانية بعد قرون من الحدث، ضمن إطار السرد الأدبي،والمسرحي ، بهدف إذلال الملك المسلم،وتشويه صورته وتصويره كضعيف وجبان، مقابل تمجيد الملكين الكاثوليكيين.

٥-الدافع الرئيس لصناعة هذه الأسطورة :تعزيز صورة المهزوم المذلول ؛لرفع شأن المنتصر الكاثوليكي، وغرس شعور الهزيمة والدونية في المسلمين والموريسكيين، وقد أُعيد توظيفها باستمرار في الأدب والإعلام الرسمي، حتى صارت علامة على نهاية الزمن الإسلامي في الأندلس،وتوظيفها لخدمة أهداف دعائية للكنيسة الكاثوليكية مثل :

أ-إذلال الطرف المهزوم :عبر تصويره كمن فقد رجولته وبكى أمام والدته.

ب-تبرير الخيانة :بإظهار أن الملك لم يكن جديرا بالثقة أو بالمعاهدة.

ج-تعزيز التفوق الديني والقومي :من خلال تصوير النصر الكاثوليكي على أنه انتصار على الضعف والخيانة.

د-تمجيد الملكين الكاثوليكيين،وإظهارهما في صورة المخلصين،والمخلّصين الشجعان،الذين استردا (الحق) الكاثوليكي من الغاصبين،ووحّدا حكومته! (٦).

بيد أن الواقع التاريخي ،يُظهر أن الملك محمد الثاني عشر أبا عبد الله، قاتل قتال الشجعان ،وصمد صمود الجبال،وقاوم الحصار،واستنجد بالمشرق والمغرب دون جدوى، ووقّع المعاهدة بشروط تحفظ حقوق المسلمين، وسعى إلى تجنيب غرناطة الدمار، وهو ما يتناقض تماما مع صورة الملك الباكي المنهار. (٧)

ومنفذ زفرة المسلم الأخيرة - ويكيبيديا ar.wikipedia.org.

(٦) انظر: الگاردينيا - مجلة ثقافية عامة - الملك المكلوم: ج٤ زفرة العربي الأخيرة algardenia.com ، ومنفذ زفرة المسلم الأخيرة - ويكيبيديا ar.wikipedia.org ،ومدونة صلة الرحم بالأندلس: أساطير حول أبي عبد الله الصغير. andalusway.blogspot.com

(٧) انظر في: الگاردينيا - مجلة ثقافية عامة - الملك المكلوم: ج٤ زفرة العربي الأخيرة algardenia.com ،ومنفذ زفرة المسلم الأخيرة - ويكيبيديا ar.wikipedia.org ،ومدونة صلة الرحم بالأندلس: أساطير حول أبي عبد الله الصغير. andalusway.blogspot.com

٦-تشير المؤرخة أندريا موراليس إلى أن الأسطورة من بناء المؤسسة الكنسية والنخب السياسية لإرساء مبدأ "تفوق العنصر الأوروبي" على بقية الأمم، وربطت انتشارها لاحقا بإجراءات العزل والتنصير ومحاكم التفتيش. (٨)

٧-لقب "الصغير" وأبعاده السياسية الدعائية

جاءت تسمية "محمد الصغير" أو "el Chico" أو "Boabdil" في الأدبيات الإسبانية بغرض التحقير والتصغير،والهدف من اللقب وفق التحليل العلمي:

أ-محاولة إذلال القائد،وتشويه سمعته، وجعله رمزا للانكسار، واختزال الهزيمة الكلية للمجتمع الأندلسي في شخص واحد ؛لتبرئة بقية القوى أو أسباب الانحدار الحضاري والسياسي بمنطق "شخصنة التاريخ" . (٩)

ب-تشجيع الرواية الدعائية للمنتصر، وربطها بحق السياسة "الإلهية" أو "القدَرية" في زوال حضارة الإسلام وصعود الكاثوليكية. (١٠).

٨-تهمة الجبن والخيانة بين السياق الموضوعي والدلالة الخطابية:

تهم الجبن والتخاذل الملقاة على عاتق الملك محمد الثاني عشر،لا تصمد أمام النقد العلمي المعاصر،ومن دلائل ذلك :

١-تشير الوثائق إلى مقاومة دامت عشرسنوات،وحصار استنفد آخر المقدرات العسكرية والاقتصادية لمدينة غرناطة في مواجهة تفوق بارودي وتكنولوجيا عسكرية جديدة -سلاح المدفعية الكبير لم تكن متاحة لبني الأحمر- (١١).

٢-كان اتخاذ قرار التسليم تحت ضغط المجاعة والخوف من مجزرة مؤكدة بحق المدنيين -كما حدث في مالقة وبسطة-عملا واقعًا يهدف إلى إنقاذ المسلمين، وهو ما تذكره مصادر أوروبية معاصرة، مثل "إليزابيث درايسون" التي وصفت فعله: بأنه أعلى أشكال الشجاعة الأخلاقية وضبط النفس.

٣-هدف إنقاذ المجتمع الغرناطي من الإبادة،كما وقع على المسلمين في الممالك التي سقطت قبلها؛ جعل من أبي عبد الله ،مفاوضا حكيما، لا خائنا ولا جبانا،وقد حظيت

---

(٨) انظر: الگارديني - مجلة ثقافية عامة - الملك المكلوم: ج٤ زفرة العربي الأخيرة algardenia.com ،ومدونة صلة الرحم بالأندلس: أساطير حول أبي عبد الله الصغير. andalusway.blogspot.com

(٩) انظر : أبو عبد الله محمد الثاني عشر - ويكيبيديا ar.wikipedia.org ،و أبو عبد الله "الصغير" آخر سلاطين بني نصر قبل سقوط غرناطة www.aljazeera.net

(١٠) انظر: الگارديني - مجلة ثقافية عامة - الملك المكلوم: ج٤ زفرة العربي الأخيرة algardenia.com ،وأبو عبد الله محمد الثاني عشر - ويكيبيديا ar.wikipedia.org

(١١) انظر السابق نفسه.

هذه المقاربات اليوم باعتراف نقدي أوسع،حتى في الأبحاث التاريخية الإسبانية الغربية،بينما نلاحظ غياب المراجعة،والبحث والاستقصاء،والتصويب في أبحاث بعض المهزومين،من الببغوات،ومحترفي التقليد والنقل الأعمى من "كتاب" القومية العربية!،لأنهم وجدوا فيها تبريرا، يخدع نفوسهم الكسولة،ويسليها،ويعفيها من مسئولية التحقيق والتمحيص. (١٢)

ثالثا:أدوات صناعة السردية وبناء الشخصيات النقيضة

اعتمدت السردية الرسمية الإسبانية على عناصر عدة، أهمها:

١-إضفاء البطولة على الملك الكاثوليكي،وتقديم فرناندو الثاني بصفات الريادة والشجاعة والدهاء السياسي، وجعله بطلا جماهيريا مسيحيا ذا بعد أسطوري. (١٣)

٢-شيطنة الخصم وتشويه صورته بتحقير الملك محمد الثاني عشرأبي عبد الله،

وإلصاق تهم الخيانة ،والجبن والبكاء،والانهيار به، واختزال سقوط الأندلس في شخصه لتبرير نهاية الحقبة الإسلامية. (١٤)

٣-نثر الأساطير الشعبية ،والإعلاء من دعاية ما يسمونه "الزفرة الأخيرة " ،واستخدام سرديات البكاء والإذلال كدليل قاطع على "دونية المهزوم"، وقوة النفس الكاثوليكي "المخلِّص"! (١٥)

٥-ليس غريبا أن تحتل القصة المزعومة لبكاء أبي عبد الله الدعائية، وتوبيخ أمه، مركز الصدارة في الذاكرة الإسبانية، إذ حملت أبعادا رمزية تستبطن "حتمية هزيمة الغريب المستوطن"، وصاغت شرعية انتصار الكاثوليكية على الإسلام.

٦-لطالما شكّلت نهاية الحكم الإسلامي في الأندلس عام ١٤٩٢م لحظة فارقة في التاريخ الأوروبي، حيث سقطت غرناطة، آخر معاقل المسلمين في أوروبا حينه، بيد الملكين الكاثوليكيين فرناندو الثاني وإيزابيلا الأولى؛إلا أن السردية الرسمية

---

(١٢)انظر في: ٥- الگارديني - مجلة ثقافية عامة - الملك المكلوم: ج٤ زفرة العربي الأخيرة algardenia.com ،وأبو عبد الله محمد الثاني عشر - ويكيبيديا ar.wikipedia.org ،وأبو عبد الله "الصغير" آخر سلاطين بني نصر قبل سقوط غرناطة- www.aljazeera.net

(١٣) انظر: فرناندو الثاني - ويكيبيديا ar.wikipedia.org .

(١٤) انظر: الگارديني - مجلة ثقافية عامة - الملك المكلوم: ج٤ زفرة العربي الأخيرة algardenia.com

(١٥) انظر: الگارديني - مجلة ثقافية عامة - الملك المكلوم: ج٤ زفرة العربي الأخيرة algardenia.com ، ومنفذ زفرة المسلم الأخيرة - ويكيبيديا ar.wikipedia.org ،ومدونة صلة الرحم بالأندلس: أساطير حول أبي عبد الله الصغير. andalusway.blogspot.com

الإسبانية الكاثوليكية، التي صيغت لاحقا في ظل هيمنة الكنيسة الكاثوليكية، عمدت إلى تشويه هذه اللحظة عبر نسج أساطير،وخرافات تهدف إلى إذلال الطرف المهزوم وتبرير الانتهاكات وجرائم الإبادة والتنصيرالقسري،وقمع الحريات الدينية للمسلمين في الأندلس،والحرق والسلخ والشوي والتهجير ومصادرة الممتلكات..إلخ

٧-إن هذه القصة ظهرت في كتابات إسبانية لاحقة، ضمن إطار ،محاولات إذلال الملك المسلم،واحتقاره،وتشويه سمعته، وتصويره كضعيف وجبان، في حين أن الوثائق التاريخية تشير إلى أنه قاوم حتى اللحظة الأخيرة، ووقّع معاهدة تسليم غرناطة بشروط تحفظ حقوق المسلمين،غير أن هذه الرواية، التي تكرّست في الوعي الشعبي الإسباني،ورغم شهرتها، لا تستند إلى أي مصدر عربي موثوق، بل ظهرت في كتابات لاحقة ذات طابع دعائي، تهدف إلى تشويه صورة الملك المسلم وتبرير نقض المعاهدة التي أبرمها مع فرناندو،وخيانة العهد الذي قطعه على نفسه ومملكته،في ٢٥ نوفمبر ١٤٩١م،ونصّت معاهدة غرناطة على ضمان حرية الدين، وحماية الممتلكات، وعدم إجبار المسلمين على التنصير، واحترام القضاء الإسلامي. لكن بعد سنوات قليلة، نقض فرناندو تلك المعاهدة بشكل ممنهج،وبفتوى دينية بابوية!وليس بقرار سياسي فحسب، وبدأت حملات التنصير القسري، ومصادرة الأملاك، وتهجير المسلمين، بل وارتكاب مجازر بحقهم.

والمصيبة العظمى أن هذا النقض لم يكن مجرد قرار سياسي، بل استُصدر له فتوى من بابا الفاتيكان، تبيح الخيانة،ونقض العهد، وتمنح الغطاء الديني اللاهوتي لعمليات التطهير العرقي التي تلت ذلك. وهكذا، تحولت إسبانيا الكاثوليكية إلى أول حكومة أوروبية تمارس الإبادة المنظمة ضد شعبها المسلم، قبل ظهور النازية،والفاشية بقرون،وبتشريع من أعلى سلطة دينية للنصارى في العالم !

ونتيجة لهذه الخيانة،ونقض المعاهدة،بمباركة البابا ،قامت حكومة إسبانيا الكاثوليكية في حينه، بحملة قاسية ضد إرثها وشعبها المسلم،ومارست التطهير العرقي بصورة ممنهجة شملت: حرق الكتب، وطرد العلماء، وإجبار المسلمين على التنصير أو القتل، ومصادرة ممتلكاتهم. وهذه الجرائم، التي ارتُكبت باسم الدين، تُعد من أبشع صور الإبادة الجماعية في التاريخ الأوروبي الوسيط، وتكشف كيف يمكن للسرديات الدينية أن تُستخدم لتبرير العنف والاضطهاد.،وانتهاك حقوق الإنسان،ونقض العهود والمواثيق المحرم والمجرم دينيا وأخلاقيا وقانونيا.

وفي ضوء هذه الحقائق، يتضح أن الرواية الإسبانية الكاثوليكية الرسمية حول سقوط غرناطة، ليست سوى بناء أسطوري خيالي، هدفه تبرير الخيانة والتطهيرالعرقي، وتشويه صورة الملك أبي عبد الله محمد الثاني عشر، الذي لم يكن خائنًا ولا جبانًا؛ بل ضحية مؤامرة سياسية ودينية كبرى،وخذلان المسلمين له في

المشرق والمغرب،تلاقت مع نفسية مهزومة ومنكسرة من ضحايا السقوط،راق لبعضهم من المصريين في القرن التاسع عشر: أن يتسلوا بسردية المنتصر،لتبرير الهزيمة...! (١٦)

رابعا: الملك محمد الثاني عشرأبوعبد الله، بين الأسطورة والحقيقة

(١)شخصية أبي عبد الله في المصادر الغربية والعربية:

وُلد محمد الثاني عشر عام ١٤٦٠م في قصر الحمراء بغرناطة، ونشأ وسط صراعات داخل أسرته ،وأمراء بني نصر،وكانت نهاية الأندلس قد دنت بالفعل قبيل ولادته، ولم يكن مسؤولا عن ضياع معظمها كما تروج له سردية المنتصر الكاثوليكي الرسمية. (١٧)

وشهد محمد الثاني عشر خلافات داخلية ، بين أبيه الملك أبو الحسن علي،وبين عمه الزغل،وبين بعض أقطاب الأسرة ومماليكها وكبارالأجهزة،وتغذي تلك الخلافات،

وتصب الزيت على نارها ،تحالفات بعض الأطراف مع القوى المسيحية الحاقدة،وعانى من مؤامرات وعزلة، وسط بيئة سياسية تتآكل فيها القدرة على الفعل المستقل. (١٨)

وفي المصادر الغربية، مثل كتاب إليزابيث درايسون(المعركة أو المقاومة الأخيرة للموريسكيين) The Moor's Last Stand ، تظهر صورة الملك محمد الثاني عشرأبي عبد الله ،بوصفه ضحية ملابسات تاريخية قاهرة ،وليس كبش فداء، وتبرز شجاعته وتضحياته للحيلولة دون مجزرة حقيقية بحق سكان غرناطة،بعكس بعض الأعمال الفنية والآداب الإسبانية،التي تظهره إما جبانا منكسرا، مسلوب الإرادة، أو

---

(١٦)انظر: وثيقة تاريخية نص معاهدة تسليم غرناطة المبرمة بين أبو عبد الله الصغير ... www.kawalees.net ،وكتاب انبعاث الإسلام في الأندلس - ملحق معاهدة تسليم غرناطة ص٤٢٩... shamela.ws ، ومعاهدة غرناطة ١٤٩١ - المعرفة Marefa - www.marefa.org و، The Treaty of Granada (1491 A.D / 897 AH) and the Question of Legal... www.jsd.sdasmart.org

(١٧) انظر : أبو عبد الله محمد الثاني عشر – ويكيبيديا، ar.wikipedia.org ،وأبو عبد الله "الصغير" آخر سلاطين بني نصر قبل سقوط غرناطة www.aljazeera.net .

(١٨) انظر : أبو عبد الله "الصغير" آخر سلاطين بني نصر قبل سقوط غرناطة www.aljazeera.net

خائنا باكيا خاضعا للنساء، (١٩) بينما تتجاهل هذه الأعمال عمدا، ظروف التفوق العسكري التقني للقشتاليين ،وخاصة استخدام المدفعية البارودية،والانقسام الداخلي المزمن بالمشرق الأندلسي، (٢٠) وسقوط جميع الممالك الأندلسية،وخلو الساحة الإسلامية من أي ناصر،أو معين.

أما المصادر العربية، فبينها من أنصف أبا عبد الله ، مثل المقري في كتابه:نفح الطيب، ووثقت مواقف بطولية في التفاوض والدفاع حتى الرمق الأخير، لكنها في بعضها-المصرية في القرن التاسع عشر- خضعت أحيانا لسردية المنتصر الرثائية التقليدية، مما جعلها تقع فريسة التأثر بالشائع عن أسطورة البكاء والتسليم. (٢١)

(٢)صورة أبي عبد الله الصغير في الفن والذاكرة الجمعية

جسد الرسامون،والمسرحيون، والأدباء والشعراء ،الإسبان الكاثوليك - بخبث كبير،وحقد دفين،وغياب للمصداقية - رواية المتغلب،والمنتصر كإجراء،كنسي عنصري متطرف، ونفسي ،واجتماعي ،وسياسي،دعائي،يبحث عن تحقيق الذات،والبطولات،وربطها بعقيدته الكاثوليكية..

وتعتبر لوحة "تسليم غرناطة" لفرانشيسكو برادیا،أوضح مثال معبر عن ذلك،بل أيقونة لانحياز الانتصار الرسمي،وسرديته،ضد المهزوم، حيث يرسم بطل المسلمين ،شابا هزيلا، قذر الهيئة، في ثياب رثة! إزاء ثنائية الإشراق والتألق والسمو في رمزية الملوك الكاثوليك وجيشهم! (٢٢)

ومن المؤكد أن هذا التشويه الجمالي ،يعدُّ امتدادا لتشويه سردي أعمق،ومن البراهين على ذلك:

أ-تجاهل حقيقة أن المسلمين في تلك الحقبة الأندلسية، كانوا أكثر تحضّرا،وأناقة ونظافة،وجمالا،وتعليما،وازدهارا عمرانيا واجتماعيا واقتصاديا، من أعدائهم القشتاليين.

---

(١٩) انظر:الگاردينيا - مجلة ثقافية عامة - الملك المكلوم: ج٤ زفرة العربي الأخيرة algardenia.com،

ومنفذ زفرة المسلم الأخيرة - ويكيبيديا ar.wikipedia.org

(٢٠) انظر: أبو عبد الله محمد الثاني عشر - ويكيبيديا ar.wikipedia.org

(٢١) انظر: أبو عبد الله محمد الثاني عشر - ويكيبيديا ar.wikipedia.org

(٢٢)انظر السابق نفسه .

ب-محو صورة الزعامة والحكمة والعزة المرتبطة بأمراء بني الأحمر في المخيلة الجمعية، واستبدالها بقالب "الباكي الجبان." (٢٣)

بل أدى هذا التشويه إلى احتقار حتى موقع دفن الملك محمد الثاني عشرأبي عبد الله في فاس المعاصرة، حيث أصبح اليوم "مزبلة" لا مقبرة، في دلالة رمزية على استمرار آثار السردية الكاثوليكية حتى بعد أكثر من خمسة قرون.

خامسا:الملك فرناندو الثاني: "موحّد إسبانيا الكاثوليكية" أم مهندس التطهيرالعرقي؟، أهو مخلّص،أم مجرد انتهازي خائن؟

منذ نشأته وصعوده السياسي، جسد فرناندو الثاني تركيبة براغماتية استثنائية؛ عدّه الإسبان في الذاكرة الرسمية "موحّد إسبانيا"،و"مسترد للحق المسلوب"،و"مخلِّص" في حين رسخه التاريخ الإسلامي والعربي كشخصية انتهازية،اقترنت بالخيانة،ونقض العهد والميثاق الذي يعد ركيزة أساسية،وقيمة سامية من مكارم الأخلاق عند العرب في جاهليتهم قبل الإسلام،يموتون دونها،ويعدون الوفاء بالعهد من خصائص الرجال الأحرار،ولوازم الشرف والمروءة والكرامة والشهامة،ثم جاء الإسلام فعززها،وعدها برهانا على صدق الإيمان،ومن القيم الدينية العليا،كما ارتبط اسم فرناندو في الذاكرة العربية والإسلامية بالقمع الديني،والتمييز العنصري،والإبادة الجماعية، وسياسات الإبادة الثقافية.

وكان زواجه من إيزابيلا الأولى ملكة قشتالة، ١٤٦٩م،الخطوة الأولى في مشروع توحيد الممالك المسيحية تحت الراية الكاثوليكية. (٢٤)

وبعد سنوات من الحروب، قاد فرناندو حملات عسكرية انتهت باستسلام ملك غرناطة ،الملك محمد الثاني عشر أبي عبد الله النصري أو الأحمر، لتبدأ صفحة جديدة من "إسبانيا الكاثوليكية النقية".

وبُنيت ذاكرة المنتصرين على مفاهيم مثل: "حرب الاسترداد" و"التطهير من الغرباء"، ورسخت صورة فرناندو كبطل قومي ديني، لطالما تم تمجيده في الأدب والفن الرسمي الإسباني. (٢٥)

---

(٢٣) انظر: الگارديا - مجلة ثقافية عامة - الملك المكلوم: ج٤ زفرة العربي الأخيرة algardenia.com ومنفذ زفرة المسلم الأخيرة - ويكيبيديا ar.wikipedia.org .

(٢٤) انظر: فرناندو الثاني - ويكيبيديا ar.wikipedia.org

(٢٥) انظر : الگارديا - مجلة ثقافية عامة - الملك المكلوم: ج٤ زفرة العربي الأخيرة

algardenia.com

لكن المؤرخين اليوم يدققون في دوافع فرناندو ويضعونها بين عقيدة دينية متعصبة وبراغماتية سياسية؛ فهو استخدم الدين الكنسي لتبرير الإبادة ،والتمييز العنصري،و القمع ،ومصادرة الممتلكات ،وإثبات "وحدة الوطن" وتبرير الإقصاء والتهجير. ويعي المؤرخون المعاصرون ،أن توثيق المآسي بجوار الانتصارات، أصبح ضرورة لفهم التاريخ بعيدًا عن سرديات المنتصر المنفردة. (٢٦)

سادسا: الخلفية التاريخية ،وسياق سقوط غرناطة :

الملامح ،والمؤشرات:

١-تأسست مملكة غرناطة،أو الدولة النصرية،أو دولة بني الأحمر،عام ٦٣٥هـ-١٢٣٧م،على يد الملك محمد بن يوسف بن محمد الخزرجي المعروف بابن الأحمر، بعد انهياردول ملوك الطوائف في الأندلس،وسقوط دولة الموحدين في المغرب والأندلس، وبعد تساقط المدن الأندلسية الكبرى تباعا في أيدي الإفرنج، وتعرض الإسلام والمسلمين لخطر الزوال،في الأندلس.(٢٧)

٢-كانت مملكة غرناطة الأطول عمرا من بين دول المسلمين في الأندلس،وحققت نجاحات وإنجازات حضاريَة باهرة توازي نجاحات دول الأندلس التي سبقتها إن لم تتفوَّق عليها،حتى حان سقوطها،وجاء الدورعلى مملكة غرناطة. (٢٨)

٣-صعود فرناندو وإيزابيلا وتوحيد جهود "الاسترداد".

٤-توقيع معاهدة غرناطة وشروطها الإنسانية.

٥-سقوط مملكةغرناطة ،في القرن الخامس عشر الميلادي،كان نتيجة حتمية لسقوط جميع الدول الإسلامية التي قامت في الأندلس،ودولتي المرابطين والموحدين.

وبعد أن اجتمعت تحت ظلال مملكة غرناطة أشلاء الأندلس المنهارة والتي انكمشت أطرافها ،وشهدت تراجعا حادا في قوتها السياسية والعسكرية، نتيجة الصراعات والخلافات الداخلية ،ولم يدركوا مدى جدية الخطر الكاثوليكي الحاقد، فراحوا يتنافسون ويتنازعون، الأمر الذي أتاح لِعدُّوهم التفوُّق عليهم،ومصداقا لقوله عزوجل : (ولا تنازعوا فتشلوا) سورة الأنفال آية ٤٦،وتزامن ذلك مع تزايد الضغط من الممالك المسيحية في الشمال، خاصة قشتالة وأراغون. ومع صعود

---

(٢٦) انظر: «الدين والدم»: قصة التطهير العرقي لشعب الأندلس – أواصر، www.awaser.net

،وحكاية طرد الموريسكيين من إسبانيا - اخباركم akhbaarcom.com

(٢٧) محمد سهيل طقوش، *تاريخ المسلمين في الأندلس ٩١ - ٨٩٧هـ/ ٧١٠ – ١٤٩٢م* ،ط. الثالثة، بيروت - لُبنان :دار النفائس. ص. ٥٧٧ – ٥٧٩.

(٢٨) مقال لأحمد الجنابي في الجزيرة نت بعنوان:غرناطة آخر ممالك الإسلام بالأندلس.

الملكين الكاثوليكيين فرناندو الثاني وإيزابيلا الأولى، توحّدت جهود ما يطلقون عليه: الاسترداد المسيحي (Reconquista) تحت راية كنسية -موغلة في التطرف والسوداوية والحقد- وسياسية واحدة، تهدف إلى إنهاء الوجود الإسلامي في شبه الجزيرة الإيبيرية.

وكانت مملكة غرناطة، بقيادة بني نصرأو بني الأحمر،آخر المعاقل الإسلامية،قد حافظت على استقلالها النسبي عبر سياسة المهادنة ودفع الجزية أحيانا، إلا أن تلك الصراعات الداخلية ،بين بعض أفراد الأسرة الحاكمة، أضعفت الجبهة الداخلية، ومهّدت الطريق أمام الحصار القشتالي الطويل الذي بدأ عام ١٤٨٢م.

وفي عام ١٤٩١م، وبعد مفاوضات مضنية، وقّع الملك أبو عبد الله معاهدة تسليم غرناطة، التي تضمنت بنودًا واضحة لحماية حقوق المسلمين،نشير إليها في المحور التالي.

هذه المعاهدة، التي وُثّقت في نصوص رسمية،وتهدف إلى انتقال سلمي للسلطة، مع حماية حقوق الشعب الأندلسي المسلم، الذين عاشوا في الأندلس لأكثر من ثمانية قرون،وصاروا بحكم معاهدة غرناطة،ضمن الشعب الإسباني الجديد،وضمن إرث الحكم الكاثوليكي الجديد.

غير أنها لم تصمد طويلا أمام التحولات السياسية والدينية التي أعقبتها، إذ سرعان ما بدأت عمليات التنصير القسري، وتضييق الخناق على المسلمين، وصولا إلى نقض المعاهدة بالكامل، وهو ما سيتناوله المحور التالي:

سابعا: نقض المعاهدة والفتوى البابوية – خيانة موثقة باسم الكنيسة وبابا الفاتيكان!

(١)الملامح ،والمؤشرات :

١-خرق البنود الأساسية للمعاهدة.

٢-إصدار فتوى من بابا الفاتيكان تجيز نقض المعاهدة، والتنصير القسري.

٣-دور الكنيسة في محاكم التفتيش والإبادة الجماعية ،والثقافية.

ونسلط الضوء على نقض معاهدة غرناطة والفتوى البابوية التي أجازت نقض العهد والخيانة،والتنصير القسري،وكشف التواطؤ بين الكنيسة الكاثوليكية الحاقدة، والسياسة في عملية التطهير العرقي ضد الشعب الإسباني المسلم في الأندلس.

(٢)معاهدة غرناطة، ١٤٩١م، بين المثالية السياسية والخيانة الواقعية.

(٣)نص المعاهدة: الحقوق والضمانات والآمال

قبل تسليم غرناطة، جرى توقيع معاهدة رسمية بين الملك محمد الثاني عشر،أبي عبدالله النصري،آخر ملوك بني الأحمر في مملكة غرناطة، والملكين الكاثوليكيين فرناندو الثاني ملك آراغون،وإزبيلا الأولى ملكة قشتالة، يوم ٢٥ نوفمبر ١٤٩١، تضمنت أكثر من أربعين مادة عُدّت ضمانا لحقوق المسلمين، من حرية العقيدة، إلى الحفاظ على الممتلكات، وعدم الإكراه على تغيير الدين، وتمثيل النخبة الحقوقية والإدارية، ووضع رهائن من علية القوم لضمان التنفيذ. (٢٩)

أبرز بنود معاهدة غرناطة :

١-حرمة المساجد وحرية الشعائر الإسلامية وحماية القضاة والعلماء والأئمة.

٢-السماح بهجرة من يشاء من المسلمين وحق العودة خلال ثلاث سنوات.

٣-منع فرض أي شارات مميزة على لباس المسلمين أو إهانتهم أو النيل من ممتلكاتهم.

٤-استقلال القضاء الإسلامي في الأحوال الشخصية، وضمان الأوقاف والمؤسسات الدينية وجميع الحقوق المكتسبة.

٥-الإعفاء من ضرائب جديدة وتحريم استخدام المسلمين أو دوابهم قسرا دون أجر.

٦-تحريم إرغام المسلمين على دخول المسيحية أو إجبار النساء أو الأطفال أو الأرامل على تغيير الدين.

وتشير هذه البنود إلى عملية تفاوضية شاقة ؛ لتحقيق تسليم مشروط للسلطة يحفظ، ولو شكليا، أكبر قدر من المصالح والحقوق للمسلمين، ويحول دون الانتقام الجماهيري أو المذابح كما حدث في بقية الأقاليم الأندلسية التي سقطت قبل غرناطة. (٣٠)

---

(٢٩) انظر: وثيقة تاريخية نص معاهدة تسليم غرناطة المبرمة بين أبو عبد الله الصغير ... www.kawalees.net ،وكتاب انبعاث الإسلام في الأندلس - ملحق معاهدة تسليم غرناطة ص٤٢٩... shamela.ws ، ومعاهدة غرناطة ١٤٩١ - المعرفة - Marefa www.marefa.org
و ... The Treaty of Granada (1491 A.D / 897 AH) and the Question of Legal، www.jsd.sdasmart.org

(٣٠) نفس السابق .

(٤)نقض المعاهدة البابوية وصعود الكاثوليكية الراديكالية

مع أن المعاهدة نصّت على احترام الحقوق، إلا أن تطبيقها على الأرض لم يدم سوى سنوات قليلة. تحت ضغط رجال الدين من أمثال الكاردينال سيسنيروس، وبتشجيع مباشر من البلاط البابوي في الفاتيكان،ثم بدأ التنصل من نصوص المعاهدة بسرية ،قبل أن يتحول إلى نهج علني. (٣١)

وفي عام ١٥٠١م، صدر مرسوم بتنصير المسلمين قسرا، ثم أُحرقت آلاف الكتب والمخطوطات والمجلدات العربية والإسلامية في ساحات غرناطة العامة،واتخذ البابا وذراعاه التشريعي والتنفيذي موقفًا واضحًا بعدم اعتبار المعاهدة ملزمة دينيا، باعتبارها جرى توقيعها تحت إكراه الضرورة وبدواع استراتيجية وليست اتفاق سلام كاثوليكي!. (٣٢)

وإن تحليل فتوى الفاتيكان تلك،ونقض المعاهدة، يكشف عن نموذج مبكر لفكرة الديماغوجيا الشرعية؛ حيث السلطة الروحية تلغي بالتأويل والسيادة الدينية أي التزام قانوني إذا عدّته مهددا لوحدة العقيدة أو الدولة. (٣٣)

(٥)النتائج المباشرة لنقض معاهدة غرناطة،وميثاقها:

الملامح والمؤشرات :

١-التنصير القسري والتهجير الجماعي.

٢-مصادرة الأملاك وإحراق التراث.

٣-إسبانيا كأول حكومة أوروبية تمارس الإبادة الجماعية،والتطهير العرقي إرثها وشعبها المسلم الجديد.

ورغم أن معاهدة غرناطة الموقعة في ٢٥ نوفمبر ١٤٩١م، بين الملك أبي عبد الله محمد الثاني عشر،والملكين الكاثوليكيين فرناندو وإيزابيلا، نصّت على ضمان حقوق المسلمين في ممارسة شعائرهم، وحماية ممتلكاتهم، واحترام لغتهم وقضائهم،

---

(٣١) سياسة التهجير الإسبانية لمسلمي الأندلس بعد سقوط غرناطة عام ١٤٩٢م
repository.univ-msila.dz ،ومعاهدة غرناطة ١٤٩١ - المعرفة - Marefa www.marefa.org
و ،The Treaty of Granada (1491 A.D / 897 AH) and the Question of Legal..www.jsd.sdasmart.org
(٣٢) انظر :«الدين والدم»: قصة التطهير العرقي لشعب الأندلس – أواصر www.awaser.net
(٣٣) انظر نفس السابق ، و The Treaty of Granada (1491 A.D / 897 AH) and the Question of Legal..www.jsd.sdasmart.org

إلا أن هذه البنود لم تُحترم سوى لفترة وجيزة. فبعد سنوات قليلة، بدأ تنفيذ خطة ممنهجة لنقض المعاهدة بندًا بندًا، في ما يمكن وصفه بأنه خيانة موثقة ومقصودة.

في عام ١٤٩٨م، أصدرت الملكة إيزابيلا قانونًا يقضي بـإجبار المسلمين على التنصير، وتحريم إقامة شعائرهم الدينية، وإحراق الكتب الإسلامية، بما فيها المصاحف وكتب الفقه واللغة. وقد تم ذلك تحت إشراف الكنيسة الكاثوليكية، التي لم تكتف بالصمت، بل أصدرت فتوى من البابا تبيح نقض المعاهدة، وتعتبر التنصير القسري "واجبا دينيا" يهدف إلى "تطهير الأرض من الكفر"! .

هذه الفتوى البابوية، التي أباحت الخيانة،كشفت عن تواطؤ كنسي وسياسي، حيث تحولت الكنيسة من مؤسسة روحية إلى أداة للقمع والفاشية والنازية،وتبرير الإبادة الجماعية باسم العقيدة المسيحية الكاثوليكية؛ وقد أدى ذلك إلى موجات من الإبادة الجماعية،والقتل والتهجير، ومحاكم التفتيش التي لاحقت المسلمين المتنصرين ظاهريا (الموريسكيين)، واعتبرتهم مشكوكا في ولائهم، فتعرضوا للتعذيب والمصادرة وحتى الإعدام،والحرق ،والشوي ،والتمثيل،بوحشية وهمجية غير مسبوقة!

ولم يكن نقض هذه المعاهدة مجرد خيانة،دينية،وقانونية،وأخلاقية،وسياسية، بل كان بداية لمرحلة مظلمة من القمع ،والكبت والتوحش الديني الكاثوليكي والثقافي،ونموذجا معلنا للظلم المنافي للعدل والمساواة وحقوق الإنسان، استهدف الشعب الإسباني المسلم، الذين عاشوا في الأندلس ثمانية قرون. وتحولت إسبانيا الكاثوليكية إلى نموذج مبكر لما يُعرف اليوم بـالتطهير العرقي، ونظام الفصل العنصري "الأبارتايد"والفاشية والنازية، حيث سعت السلطة إلى محو كل أثر للهوية الإسلامية من الأرض التي كانت يوما منارة للعلم والتسامح،والازدهار الحضاري،ونموجا فريدا للتعايش بين أتباع الأديان المختلفة.

وقد وثّقت المصادر التاريخية هذه الجرائم، التي شملت:

١-انهيار الاستقرار الأندلسي وبداية عصر الخيانة،والفاشية والنازية الكاثوليكية،والفصل العنصري ،والثأروالانتقام،والتوحش والظلم بأقسى معانيه باسم الإله والكنيسة!

٢- التنصير القسري :أُجبر المسلمون على اعتناق المسيحية، وتغيير أسمائهم، والتخلي عن لغتهم وعاداتهم، تحت تهديد السجن أو الإعدام.

٣-خرج آلاف المسلمين إلى المنفى في المغرب وشمال إفريقيا، بينما بقيت الأقلية التي أعلن تنصيرها ظاهريا تعيش حياة مزدوجة (الموريسكيون).

٤-ما جرى بين ١٤٩٩م، و١٥٦٨م، لم يكن تحولا اجتماعيا عابرا ؛بل عملية تطهيرعرقي،وثقافي، ارتُكب بحق مجموعات من المواطنين الإسبان المسلمين،الذين بنوا حضارة علمية واجتماعية وحضارية امتدت لأكثر من ٨٠٠ عام، (٣٤) وبددت ظلمات الجهل،والتخلف الذي تعيشه أوروبا حينه،وأنارت البلاد بالعلم،والتعايش،والحريات الدينية،وعاش في كنفها المسلم والمسيحي واليهودي في وئام وسلام تامّين،وتعايش فريد ،صار مضربا للأمثال.

٥- التهجير الجماعي :طُرد عشرات الآلاف من المسلمين إلى شمال إفريقيا،وقارة أمريكا الشمالية والجنوبية، في موجات متتالية بلغت ذروتها في القرن السابع عشر.

٦-مصادرة الأملاك :استولت الدولة والكنيسة على أراضي المسلمين ومنازلهم، وحوّلت المساجد إلى كنائس، في عملية ممنهجة لمحو الرموز الإسلامية.

٧- إبادة ثقافية :أُحرقت الكتب والمخطوطات، التي تمثل تراثا حضاريا إنسانيا عريقا، مما أدى إلى فقدان كمّ هائل من التراث العلمي والأدبي ،والإنساني.

٨-إجبار المسلمين على تغيير أسمائهم ولغتهم وهويتهم.

٩-الظلم والتوحش،والقمع،وكبت جميع الحريات،وانتهاك جميع حقوق المواطن الإسباني المسلم.

١٠-الحرق بالنار،والتمثيل بالجثث، وتقطيع أوصالهم ،ودفن البشروهم أحياء.

١١-جرائم جنائية بشعة تمثل الهمجية والفاشية والنازية في أبشع صورها.

١٢- محاكم التفتيش :أُنشئت لملاحقة "الموريسكيين" المسلمين المتنصرين ظاهريا، واتهامهم بالردة، مما أدى إلى تعذيب الآلاف وإعدام المئات،وحرقهم. (٣٥)

---

(٣٤) انظر في:«الدين والدم»: قصة التطهير العرقي لشعب الأندلس – أواصر www.awaser.net ،وحكاية طرد الموريسكيين من إسبانيا – اخباركم- akhbaarcom.com ،وسياسة التهجير الإسبانية لمسلمي الأندلس بعد سقوط غرناطة عام ١٤٩٢م- repository.univ-msila.dz ،والموريسكيون.. قدر الله النافذ الذي لم تفلح محاكم التفتيش في محوه!- belarabiyah.com

(٣٥)انظر في:«الدين والدم»: قصة التطهير العرقي لشعب الأندلس – أواصر- www.awaser.net،وسياسة التهجير الإسبانية لمسلمي الأندلس بعد سقوط غرناطة عام ١٤٩٢م- repository.univ-msila.dz ،ومعاهدة غرناطة ١٤٩١ - المعرفة - Marefa www.marefa.org ، و The Treaty of Granada (1491 A.D / 897 AH) and the Question of Legal..www.jsd.sdasmart.org

وهذه السياسات لم تكن عشوائية، بل نُفذت وفق خطة مدروسة تهدف إلى إعادة تشكيل الهوية الإسبانية على أسس دينية كنسية كاثوليكية، وعرقية نقية، وهو ما يجعل من إسبانيا الكاثوليكية أول حكومة أوروبية تمارس الإبادة المنظمة ضد شعبها، قبل ظهور الفاشية والنازية ونظام الفصل العنصري "الأبارتايد"بقرون.

ثامنا : خلاصة الأسطورة بين التاريخ المصنوع، واستعادة الحقيقة:

الملامح والمؤشرات:

١-إعادة قراءة الحدث من منظور نقدي علمي بحت.

٢-كشف التلاعب السياسي والديني الكاثوليكي.

٣-دعوة لاستعادة الحقيقة التاريخية وتكريم الإرث الأندلسي.

إن تفكيك السردية الكاثوليكية حول سقوط غرناطة، يكشف عن حجم التلاعب الذي مارسته السلطة الدينية الكاثوليكية، والسياسية؛ لتبرير خيانة المعاهدة،ونقضها، وتشويه صورة الملك أبي عبد الله محمد الثاني عشر، وتحويله إلى رمز للجبن والخيانة والانهزام، لكن العودة إلى المصادر التاريخية، وتحليل الوثائق الأصلية، يبيّن أن ما حدث لم يكن انهيارًا ذاتيًا، بل نتيجة مؤامرة دينية وسياسية استهدفت شعبا بأكمله.

وأُسدل الستار على الحضارة الإسلامية في الأندلس، لا عبر معركة نزيهة، بل عبر خيانة موثقة، وفتوى دينية بابوية كنسية كاثوليكية، أباحت الإبادة الجماعية وتطبيق نظام الفصل العنصري،ومارست الفاشية والنازية في أبشع تطبيقاتها،كما استعان المنتصربأساطير أدبية،وخرافات سردية، هدفت إلى إذلال المهزوم ،وتشويه سمعته. وعندما يتصدى الموريسكيون اليوم،لتفنيد هذه الأكاذيب ،والفبركات التي ألصقت بتاريخ أجدادهم،وشوهت سمعتهم، فإنما يقدمون إعادة لقراءة هذا الحدث من منظور علمي ونقدي بحت، ولا يستهدفون إلى إثارة العداء والكراهية والعنصرية-فذلك ليس من شيم المسلمين-؛ بل هدفها استعادة الحقيقة التاريخية، وتكريم شعب ساهم في بناء حضارة عظيمة، قبل أن يُمحى من الذاكرة الرسمية.

تاسعا: محاكم التفتيش والتطهير العرقي ضد مسلمي الأندلس

(١) تكريس العنف الكنسي والمؤسسي

تعد الفترة التي تلت سقوط غرناطة واحدة من أكثر الفصول التاريخية سوداوية، في تاريخ العلاقة بين المسيحية والمسلمين في الغرب المتوسطي. فبحلول ١٤٧٨م، تم

تأسيس محاكم التفتيش الإسبانية، ولكن التفعيل الحقيقي لدور هذه المحاكم الإرهابية، جاء بعد تسلم غرناطة؛ حيث اتخذت من تتبع (المرتدين) –ظاهريا- من الموريسكيين ذريعة لتنفيذ قمع جماعي منظم.

وقامت الكنيسة الكاثوليكية بتأسيس محاكمها ،وفق نموذج شديد القسوة، اعتمد على التعذيب ،والتفتيش التمهيدي، ثم الاعتقال دون تهمة واضحة، ليُخيّر المُتَّهَم بين الاعتراف الكامل مهما كانت طبيعة التهمة أو السجن أو الإعدام حرقًا.

وحصيلة جرائم محاكم التفتيش الإرهابية تمثلت في:

١-حرق آلاف الأشخاص أحياء، ومصادرة أملاك واسعة للمسلمين واليهود؛بل حتى للمتنصرين الجدد.

٢-إحراق الكتب والمخطوطات الدينية والثقافية الإسلامية وإجبارهم على منع اللغة العربية، وكل المظاهر الثقافية الإسلامية.

٣-تحويل المساجد إلى كنائس كبرى ،أبرزها: مسجد غرناطة الأعظم، وتغيير أسماء الأحياء والشوارع العربية.

٤-تغيير أسماء المواطنين المسلمين،إلى أسماء ذات طابع كنسي،ومنحهم ألقابا تحقيرية،ووضيعة،إمعانا في إذلالهم واستعبادهم. (٣٦)

(٢) سياسة التنصير القسري والنفي الجماعي

ترافقت هذه الإجراءات مع حملة تنصير قسرية، انطلقت بشكل عنيف منذ سنة ١٤٩٩م، ولم تتوقف حتى صدور مرسوم ١٦٠٩م، بطرد كافة الموريسكيين إلى شمال إفريقيا.

(٣)الخصائص المركزية لهذه المرحلة:

١-خنق جميع المنافذ الاقتصادية والثقافية، ومنع استخدام اللغة العربية، وحظر كل ما له علاقة بالإسلام ،والعبادات،وعادات وأعراف في الحياة الشخصية والمجتمعية.

(٣٦)انظر: جرائم محاكم التفتيش المسيحية ضد المورسكيين بعد سقوط غرناطة عاصمة ... asjp.cerist.dz

٢-فرض ضرائب مجحفة على غير المتنصرين ،واعتبار من يخالفها مستحقا للسجن أو المصادرة أو الإعدام.

٣-تحول الاضطهاد إلى عملية اقتلاع عرقي ممنهج، حيث تم استئصال الذاكرة والهوية الإسلامية، والنتيجة الفعلية كانت طرد مئات الآلاف من الأندلسيين إلى المغرب وتونس والجزائر، تاركين آثارهم العميقة في الاقتصاد والمجتمع والثقافة المغاربية. (٣٧)

(٤)المقاومة الصامتة: حياة الموريسكيين في الظل

الحياة الموريسكية بين ١٥٠٢م - ١٦٠٩م، كانت شكلا من أشكال الصمود الديني،و الثقافي ،والاجتماعي،ومن مظاهر ذلك :

١-استمرار أداء الشعائر الإسلامية سرا،وتداول القرآن والأدعية العربية في الخفاء.

٢-فتاوى أجازت "التقية والمظهر المسيحي الظاهري" للحفاظ على الدين والنفس في مواجهة المذابح ،والفناء.

ورغم ذلك، مورس على الموريسكيين متابعة،ومراقبة صارمة، وتعرضوا لموجة جديدة من الثورات والقمع ،كثورة جبال البشرات ، وتكللت الإجراءات الملكية في عهد فيليب الثالث بالطرد الشامل، وهو ما عُدّ أول حملة تطهير عرقي واسعة بحق أقلية دينية في العصر الحديث باسم الإله!عزوجل،وباسم الكنيسة الكاثوليكية. (٣٨)

عاشرا:الرواية العربية والإسبانية،ومقارنة السرديتين في سقوط غرناطة

(١)السردية العربية: بين التوثيق والرثاء

ركزت المصادر العربية الكبرى، مثل "نفح الطيب" للمقري، و"الإحاطة في أخبار غرناطة" لابن الخطيب، ومصنفات ابن الخاقان وابن عبدون، على تحليل الانحطاط الداخلي والأزمة الأخلاقية والسياسية التي آلت إليها دولة بني الأحمر،ولم تعطِ

(٣٧) انظر في:«الدين والدم»: قصة التطهير العرقي لشعب الأندلس – أواصر www.awaser.net ،وحكاية طرد الموريسكيين من إسبانيا – اخباركم- akhbaarcom.com، وسياسة التهجير الإسبانية لمسلمي الأندلس بعد سقوط غرناطة عام ١٤٩٢م- repository.univ-msila.dz، والموريسكيون.. قدر الله النافذ الذي لم تفلح محاكم التفتيش في محوه! belarabiyah.com

(٣٨) انظر في:«الدين والدم»: قصة التطهير العرقي لشعب الأندلس – أواصر www.awaser.net ،وحكاية طرد الموريسكيين من إسبانيا – اخباركم- akhbaarcom.com،و والموريسكيون.. قدر الله النافذ الذي لم تفلح محاكم التفتيش في محوه! belarabiyah.com

للعامل الفردي -أي شخصية أبي عبد الله- نفس الزخم الذي أعطته الرواية الكاثوليكية، بينما أكدت على عامل الانقسامات الداخلية والتحالفات المتكررة مع بعض القوى المسيحية.

في بعض المصادر،ظهرت نبرة رثائية تراجيدية ،تربط بين سقوط غرناطة وانهيار حضارة بكاملها، وتحوّل المصير الجمعي للأندلسيين إلى مرثية فكرية وثقافية لا قرين لها في السرديات الأوروبية،وتم تحميل وزرها جميعا لبني الأحمر!رغم أن مملكة غرناطة صمدت أكثر من أربعة قرون،وكانت آخر مملكة إسلامية أندلسية سقوطا،بعد حروب طاحنة استمرت أكثر من عشرة أعوام،ضد الغزاة الكاثوليك،وحوصرت تسعة شهور من قبل إزبيلا ملكة مملكة قشتالة،حتى تفشت المجاعة،والأمراض ،وأنهك الجيش،ونفدت المؤونة،مع الفارق الكبير في التسليح بين جيش غرناطة،وجيوش الإفرنج الكاثوليك،الملكين:فرناناندو وإزبيلا، وعز الناصر والمعين في المشرق والمغرب الإسلامي. (٣٩)

(٢)السردية الإسبانية: الدعاية،والتشويه،واستمرار السلطة الرمزية

صاغ الإسبان روايتهم من منطلق وعي كاثوليكي قومي ناشئ، اعتبر "استعادة الأراضي" رسالة سماوية وتكليفا إلهيا، وجعل من محمد الثاني عشر رمزا للجبن والخيانة، متناسيا كل تعقيدات الواقع الأندلسي المعقد،والتضحيات التي قدمها الملك محمد الثاني عشر أبي عبدالله الأحمر.

وقد جرى تدوين أحداث سقوط غرناطة في السجلات الرسمية والكنسية بهدف:

١-تبرير السياسات القمعية ،والتنصيرية ،والفاشية ،والنازية،ونظام الفصل العنصري،عبر الأكاذيب،وتزوير التاريخ، والشيطنة الكاملة للمسلمين والموريسكيين.

٢-إعادة بناء الطابع القومي عبر محو الذاكرة الإسلامية ،وادعاء "التفوق للعنصر الأوروبي".

٣-الدعاية،لترويج أسطورة عناصر الدعاية الشعبوية الجماهيرية : بطولة الملوك الكاثوليك، مقابل جبن ونذالة المهزومين.

---

(٣٩)انظر في: الگارديني - مجلة ثقافية عامة - الملك المكلوم: ج٤ زفرة العربي الأخيرة algardenia.com ،ومنفذ زفرة المسلم الأخيرة - ويكيبيديا ar.wikipedia.org ،وتحوّلات السرد العربيّ من الأندلس إلى إسبانيا المسيحيّة: إشكالات الترجمة ... brill.com

غير أن المؤرخين الإسبان المعاصرين، بعد موجة مراجعات علمية ونقدية،من خلال أبحاث ،ودراسات أكاديمية حديثة، بدأوا يبحثون في أصول ،ودوافع تلك الدعاية، ويقارنونها مع شهادات شهود عيان ووثائق غير رسمية ومعارضات داخلية حتى في المجتمع المسيحي المعاصر للحدث،واكتشفوا حجم التزييف والأكاذيب المصنوعة في السردية الكاثوليكية الإسبانية،لسقوط غرناطة. (٤٠)

(٣)التحول السردي بين المنفي والمتغلب: صراع الهويات والذاكرة

تجلى صراع السرديات في الذاكرة الجمعية للأندلسيين المنفيين والموريسكيين، الذين ورثوا الأندلس كحلم ضائع ونموذج حضاري أخلاقي شبه أسطوري.

في المقابل، عاش الإسبان في حالة نسيان متعمد،وانتقائي، لبعض حقائق الماضي، وحوّلوا صفحات الاضطهاد إلى انتصار حضاري ،وخلاص تاريخي!

واستمرت سردية إعادة إنتاج الأساطيرالدعائية في الخيال الشعبوي الجماهيري الكاثوليكي والسياسي، من خلال إحياء ذكرى سقوط غرناطة "استرداد" في ٢ يناير سنويا، عبر الاحتفال السنوي لغرناطة الرسمية باستعادة المدينة على وقع مسرحية تسليم المفاتيح ورمزية "أبو عبد الله الباكي"!. (٤١)

الحادي عشر: أثرالتوظيف السردي على الهوية والذاكرة:الأسطورة كأداة تبرير ومحو!

(١)تبرير الانتصار وتشويه الخصم: وظيفة الأساطير في السردية الإسبانية

تكشف مراجعة المنهجية الدعائية للمؤسسة الملكية والكنسية عن ملامح مركزية لهذا التبرير منها :

١-اختزال الهزيمة في شخصية السلطان الأخير،المغلوب :يسمح بتبرئة بقية الأمة الإسبانية الكاثوليكية من الجرائم الجماعية ويضفي طابع "الحتمية" على السقوط.

---

(٤٠) نفس السابق .

(٤١)انظر:«الدين والدم»: قصة التطهير العرقي لشعب الأندلس – أواصر www.awaser.net ،و الموريسكيون.. قدر الله النافذ الذي لم تفلح محاكم التفتيش في محوه! belarabiyah.com

٢-توظيف الأساطير لصالح السياسة الدينية الكنسية،والاجتماعية والاقتصادية : بإلغاء أي التزام أخلاقي أو قانوني تجاه الأقليات المنهزمة (المسلمون واليهود)، وتبرير القمع والتطهير العرقي على أساس التفوق الروحي والعرقي.

٣-تكرار الاستدعاء الرمزي للأسطورة في الفن التشكيلي، الأدب، الاحتفالات،والمسرحيات والاحتجاجات الشعبية.

(٢)الأسطورة والإعلام:إعادة إنتاج سرديات تشويه المغلوب عبر الأجيال

غذّى الإعلام والفن الإسباني منذ القرن السادس عشر أسطورة البكاء، فصارت مشهدا دراميا ثابتا في الأعمال الأدبية، ولوحات الفنون التشكيلية، واستُحدثت نصوص ومسرحيات ومسلسلات درامية ذهبت إلى أبعد من التشويه التاريخي بمزاعم عاطفية -كقصة الغرام مع ثريا الرومية- وهزائم الضعيف المغلوب،ومع الأسف راجت هذه المسرحيات في عالمنا العربي من بعض الببغوات الجهال،وقدر لي حضور بعضها ومشاهدتها باشمئزاز،وغثيان،أيام اختطاف الصحوة الإخونجية للحياة العلمية والثقافية والفكرية في العالم العربي والإسلامي.

ومن إفرازات صناعة هذا الإنتاج الإعلامي الهابط ما يلي:

١-تثبيت صورة "المرأة المسيطرة" و"السلطان المغلوب" في المخيلة الجماعية.

٢-نزع البطولة والعزة من تاريخ الشعوب المغلوبة،وغرس أكذوبة البكاء والجبن والهزيمة، كعناصر بنيوية في هوية ،وذاكرة المغلوب الجمعية.

٣-استمرارتشريع إبقاء الأقليات في حالة دونية، ومواصلة الرواية التحقيرية في كل إعادة تخييل للحدث التاريخي. (٤٢)

(٣)الآثار الممتدة على الذاكرة الجمعية الإسلامية والأندلسية

تسببت هذه السرديات التشويهية في جرح مستدام داخل الوعي العربي والإسلامي، ألقى بظلاله على قيمة الحضارة الأندلسية ودورها التاريخي.

وظلّت قضية الأندلس رمزا لفقدان التعددية،والتعايش السلمي والحضاري بين أتباع الديانات المختلفة، ونموذجا لحصار العقل الجمعي بين مرثية السيطرة ،وسردية البكاء والجبن، والانسياق وراء الصور الدعائية للمنتصر.

(٤٢)انظر: ٧- مدونة صلة الرحم بالأندلس: أساطير حول أبي عبد الله الصغير- andalusway.blogspot.com

وهذا الاندماج بين الرثاء ،وتحقير الذات،وعقدة الشعور بالنقص،منع المجتمعات الموروثة في شمال إفريقيا وغيرها، من تقييم العلاقة مع تاريخهم على نحو متوازن، كما يفعل الإسبان المعاصرين اليوم في مشاريع مراجعة الهوية والتاريخ. (٤٣)

الثاني عشر: التاريخ بين تدافع السرديات وواجب التوثيق العلمي

(١)المراجعات الأكاديمية المعاصرة وقيمة النقد الاسترادادي

شهدت السنوات الأخيرة ظهور اتجاه أكاديمي نقدي جديد،إسبانيا، وعربيا وغربيا،يركز على تفكيك الأساطير وإعادة الاعتبار للحقيقة التاريخية،والإنسانية خلف الحدث. ومن أبرز هذه الدراسات:

١-أعمال المؤرخة البريطانية : إليزابيث درايسون، والتي تمتاز بنظرة إنسانية للمهزوم وتدعو إلى تقييم أفعال القيادات بناء على معايير الأزمة ،لا معايير الدعاية البطولية الزائفة .

٢-تحليلات الموريسكي الإسباني: ليوناردو بيينا في كتابه "الزفرة الأخيرة"، التي تثبت زيف أسطورة "بكاء أبي عبد الله" وتعيد قراءة المعطيات الجغرافية والتفصيلية للواقعة.

٣-دراسات بعض المؤرخين العرب لتوثيق الهجرات الجماعية وتجارب القسوة والتنصير والتهجير وتأثيرها في تشكيل الثقافة المغاربية الحديثة.

وتدعو تلك الدراسات إلى التشكيك الصحي في كل ما ورد من روايات رسمية ،ومحاولة إعادة بناء الحدث ،وقيمه ،ودلالاته ،بناء على التداخل المعقد للسياسة والمجتمع والدين الكاثوليكي العنصري الإرهابي.(٤٤)

(٢)السردية التاريخية بين المغلوب والمتغلب: جدلية التبرير والاعتبار

---

(٤٣) انظر في:«الدين والدم»: قصة التطهير العرقي لشعب الأندلس – أواصر www.awaser.net ،وحكاية طرد الموريسكيين من إسبانيا – اخباركم- akhbaarcom.com

(٤٤)انظر في:«الدين والدم»: قصة التطهير العرقي لشعب الأندلس – أواصر www.awaser.net ،وسياسة التهجير الإسبانية لمسلمي الأندلس بعد سقوط غرناطة عام ١٤٩٢م- repository.univ-msila.dz ، والگارديني - مجلة ثقافية عامة - الملك المكلوم: ج٤ زفرة العربي الأخيرة- algardenia.com ،ومنفذ زفرة المسلم الأخيرة - ويكيبيديا ar.wikipedia.org ، والموريسكيون.. قدر الله النافذ الذي لم تفلح محاكم التفتيش في محوه!- belarabiyah.com

تبرز المقارنة بين الروايتين: الغالب والمغلوب، كعامل حيوي في فهم طبيعة تسييس التاريخ،ومن ذلك :

١-الغالب يصوغ التاريخ ليبرر جرائمه وخيانته ،ولمحو مأساة الآخر.

٢-المغلوب إما يسقط في الرثاء السلبي، أويكرر سردية الغالب،ويضخم من شأنه ،ليقنع نفسه بالهزيمة،وحتميتها !رغم الظروف المروّعة للهزيمة.

لذا يصبح من واجبات المؤرخ المنصف، تقديم صورة متوازنة تعي أن انتصار أحد الأطراف لم يكن حتميا ،أو نهائيا بالمعنى القيمي، بل نتيجة صراع طويل ومعقد انهارت فيه الدولة الداخلية قبل جيوش الأعداء خارجيا،مع خذلان المشرق والمغرب الإسلامي للمغلوب،رغم ما توجبه عقيدة الولاء والبراء عند المسلمين،من نصرة الأخ في الملة ظالما أو مظلوما. (٤٥)

(٣)الأسطورة كدرس أخلاقي وسياسي في زمننا المعاصر

فتح كشف الأساطير والتشويهات الدعائية- التي نسجها الغالبون (المنتصرون)- الباب أمام مقاربات جديدة للعلاقة بين السياسة والتاريخ،وخاصة في المجتمعات متعددة الذاكرة والهوية.

ولا ريب بأن رفض رواية "الباكي الخائن" كأداة للتبرير النهائي واستبدالها، بسرد علمي ،ونقدي،وتاريخي ،وإنساني،وموضوعي ،هو الخطوة الأولى نحو مصالحة مقبولة مع التاريخ المسيس،والمشوه. (٤٦)

الخاتمة

يوضح هذا المبحث كيف تم تصنيع وتشغيل أسطورة الملك محمد الثاني عشر أبي عبد الله الأحمر، في مختبر السياسة والكنيسة، والدعاية الإسبانية ،عقب سقوط غرناطة،وأضحى الدمج بين الشجاعة الفردية للمنتصر، والخيانة الكاملة للمغلوب،تكتيكا سرديا لشرعنة الانتصار، ونفي الإنسانية عن المهزوم. بيد أن مراجعة المصادر الأصلية ومقارنتها مع نتائج الدراسات المعاصرة ،يظهر أن كثيرا من أسس تلك الأسطورة لا أساس له من الصحة البتة،وإنما خرج من الخيال

(٤٥)استمع إلى:بودكاست مغارب،قناة:أثير، مع المؤرخة الإسبانية الموريسكية/أديبة عبدالصمد روميرو سانشيز.

(٤٦) انظر السابق نفسه.

الكاثوليكي الرسمي ،الذي لجأ للرمز الكاريكاتوري لبناء سردية "تطهير الغريب" وتثبيت فكرة النقاء الديني العرقي لإسبانيا.

وتكشف دراسة السردية الكاثوليكية بشأن سقوط غرناطة، وتفنيد أساطير تشويه محمد الثاني عشر، حقيقة أن التاريخ يكتبه المنتصر، لكن الذاكرة الجمعية أكثر تعقيدا وتشعبا وانفتاحا على التأويل والمراجعة، وإن محو الحقائق التاريخية،وتشويه صورة الخصوم المهزومين ،لا يخدم سوى استمرار القمع وإباحة العنف،والإبادة الجماعية،والدينية والثقافية،والتطهير العرقي، بينما النقد العلمي يمنح الجميع فرصة النظر في المرآة ،ويدعو للمصالحة مع الماضي من خلال الاعتراف بالأخطاء وتوثيق المعاناة بقدر توثيق الانتصار. (٤٧)

ولا زالت تلك الأساطير،والخرافات الكنسية الكاثولية،ضد الملك محمد الثاني عشر أبي عبدالله الأحمر ، نداء مفتوحا للمراجعة والمصالحة،وإعادة الاعتبار للمغيبين في هوامش التاريخ من كل الحضارات، ودرسا للأجيال القادمة في المسؤولية، وأهمية الانتصار لقيم الحقيقة والعدالة،وليس فقط لتاريخ المنتصرين وسردياتهم الرسمية. (٤٨) .

المراجع

١-المقري، أحمد بن محمد .(1631) .*نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب* . القاهرة: دار الكتب.

٢ابن الخطيب، لسان الدين .(1374) .*الإحاطة في أخبار غرناطة* .تحقيق: محمد عبد الله عنان. القاهرة: مكتبة الخانجي.

٣- Harvey, L. P. (2005). *Muslims in Spain, 1500 to 1614*. University of Chicago Press.

٤- O'Callaghan, J. F. (2003). *A History of Medieval Spain*. Cornell University Press.

٥- Kamen, H. (1997). *The Spanish Inquisition: A Historical Revision*. London: Weidenfeld & Nicolson.

(٤٧)انظر السابق نفسه.

(٤٨) استمع إلى:بودكاست مغارب،قناة:أثير، مع المؤرخة الإسبانية الموريسكية/أديبة عبدالصمد روميرو سانشيز.

٦- García-Arenal, M. (2016). *The Expulsion of the Moriscos from Spain: A Mediterranean Diaspora*. Brill.

٧- Vincent, B. (1992). *La última frontera de Al-Andalus: los moriscos del Reino de Granada*. Madrid: Alianza Editorial.

٨- Fernández-Morera, D. (2016). *The Myth of the Andalusian Paradise: Muslims, Christians, and Jews under Islamic Rule in Medieval Spain*. Intercollegiate Studies Institute

٩-بودكاست مغارب مع المؤرخة الإسبانية الموريسكية/أديبة عبدالصمد روميرو سانشيز.

١٠-«الدين والدم»: قصة التطهير العرقي لشعب الأندلس – أواصر

www.awaser.net

١١- حكاية طرد الموريسكيين من إسبانيا – اخباركم- akhbaarcom.com

١٢- سياسة التهجير الإسبانية لمسلمي الأندلس بعد سقوط غرناطة عام ١٤٩٢م-

repository.univ-msila.dz

١٣- فرناندو الثاني – ويكيبيديا- ar.wikipedia.org

١٤- الگاردينيا - مجلة ثقافية عامة - الملك المكلوم: ج٤ زفرة العربي الأخيرة

algardenia.com

١٥- منفذ زفرة المسلم الأخيرة - ويكيبيديا ar.wikipedia.org

١٦- مدونة صلة الرحم بالأندلس: أساطير حول أبي عبد الله الصغير.

andalusway.blogspot.com

١٧- أبو عبد الله محمد الثاني عشر - ويكيبيديا ar.wikipedia.org

١٨- أبو عبد الله "الصغير" آخر سلاطين بني نصر قبل سقوط غرناطة

www.aljazeera.net

١٩- وثيقة تاريخية نص معاهدة تسليم غرناطة المبرمة بين أبو عبد الله الصغير ...

www.kawalees.net

٢٠- كتاب انبعاث الإسلام في الأندلس - ملحق معاهدة تسليم غرناطة ص٤٢٩...

shamela.ws

٢١- معاهدة غرناطة ١٤٩١ - المعرفة - Marefa www.marefa.org

٢٢- The Treaty of Granada (1491 A.D / 897 AH) and the Question of Legal..www.jsd.sdasmart.org

٢٣- الموريسكيون.. قدر الله النافذ الذي لم تفلح محاكم التفتيش في محوه!

belarabiyah.com

٢٤- جرائم محاكم التفتيش المسيحية ضد المورسكيين بعد سقوط غرناطة عاصمة ... asjp.cerist.dz

٢٥- تحوّلات السرد العربيّ من الأندلس إلى إسبانيا المسيحيّة: إشكالات الترجمة ...

brill.com

٢٦- الأندلس وطن سردي في الكتابات الروائية الإسبانية-
www.aljazeera.net